قراءة في كتاب

الثَّقَافَةُ والمُقَاوَمَة

أمل قطاوي

العنوان	الثقافة والمقاومة
المؤلف	إدوارد سعيد
حاوره	دايفيد بارساميان
ترجمة	علاء الدين أبو زينة

"إنَّ إدوارد سعيد نص مفتوح على العالم" . ... جورج ستاتير

إدوارد سعيد الذي رفض الخضوع لقوى الهيمنة ومفردات الانغلاق، لم يرضَ أن يطوي في داخله إمكانات الأجزاء والوحدات لهذه القوى المهيمنة؛ ما انعكس على كتاباته الفكرية والثقافية المقاومة، عبر إعادة إذكاء شعلة التمرد وإنتاج الوقود الفكري والقيمي؛ لتغذية هذا اللهب، لمواجهة الاصطدام الفكري والثقافي الذي يخوضه على مختلف الجبهات، وبأسلحة المحارب الفذ التي لا تلين عزيمته ولا تهزم. فعمد إلى الاستبسال في تأكيد قيم العدل والحرية، وكان نموذجاً للمثقف والمقاوم والسياسي والوطني، عبر مواجهته لكل المؤسسات التقليدية، منتصراً لقيم البناء الديمقراطي والتجديد المجتمعي.

كانت كتابات سعيد تحمل مشروعاً إنسانياً وقصة أزلية، يرويها ليوصلها إلى هذا العالم، عبر تطويعه للغة والفكر في خدمة هذه القصة، على الرغم من عِلمه المسبق بماذا سيقابل من الآخر. "إن قضية فلسطين قضية غير مجدِية؛ فأنتَ لا تأخذ شيئاً في مقابل التزامك سوى الازدراء والاضطهاد والنبذ" (ص: 13). فكان يسعى إلى تغيير العقول والرؤوس، تمهيداً لتغيير الواقع، وذلك انطلاقاً من إيمانه القوي بمشروعه، وقناعته بأن التغيير لا يحدث ما لم يحدث الوعي بالتغيير، وأن التغيير الموضوعي لا يحدث إلا بالتغيير الشعوري. فعمل على زحزحة الحضور العربي في الوعي الغربي، فهو راوٍ موضوعي للقضية، نقلها للعالم بكل ما تحمل من أثر وتأثير، إيماناً منه بأن ذلك لن يتم إلا من خلال معرفتنا بأنفسنا، "ومعرفة النفس هي معرفة العالم" (كونفوشيوس).

يؤكد سعيد على أن الثقافة هي أساس المقاومة، والثقافة هنا تعني: معرفة الآخر ضمن هذه العلاقات المعقدة والمتشابكة في هذا النظام؛ فهو يدفع قانون دولة البطش التي تقوم على القهر، ليعيد تنظيم العلاقة بشكل مختلف، قائم على التعاقد، ليجعل فيها فضاء للوجود البشري، ولتحقيق المواطنة وحقوقها المكفولة في هذا التعاقد.

يشتمل كتاب إدوارد سعيد "**الثقافة والمقاومة**" الذي ترجمه علاء الدين أبو زينة على محاور رئيسية عدة، حددتها المواضيع الحوارية التي تطرق إليها دايفيد بار ساميان، وأهمها التالية:

المحور الأول: حل الدولة الواحدة

يطرح فكرة حل الدولة الواحدة؛ التي تبدو للبعض فكرة مجنونة على أسس واضحة، أهمها الندية والمساواة اللتان بدورهما تقومان على إلغاء الرواية المؤسسة للفكر الإسرائيلي؛ القائم على إنكار الآخر العربي وتصويره دائماً بأنه بدوي هائم؛ وهو ليس ضمن السكان المحليين، وبالتالي لا يتمتع بالحقوق المتوفرة لهم "لم يتعاملوا في نهاية المطاف مع سكان محليين ذوي وجود راسخ ومتجذر، ويعيشون في البلدان والمدن، ويمتلكون بنيتهم الاجتماعية الخاصة، بل مع مجرد صحراء يقطنها بدو هائمون على وجوههم، بحيث يسهل طردهم" (ص: 32). وهذه التلفيقات لا تحتاج إلى الكثير من الجهد لتقويضها، فموشيه ديان نفسه

يعترف بذلك، لكن ليس من أجل مواجهة الجريمة والاعتراف بتبعاتها السياسية والأخلاقية، بل من أجل تأكيد ضرورتها وتعميق وجودها على الرغم من فقدانها لشرعيتها إلا شرعية القوة، وذلك واضح في قوله: "أبنائي، لا يوجد مكان واحد في هذه البلد لم يكن فيه سكان عرب من قبل". ثم قال: لقد استولينا على هذه الأماكن بالقوة. لا تنسوا ذلك" (ص: 34).

أما الأسس الأخرى؛ فتجلت في قدرته على رؤية الواقع، وإدراكه للعلاقات المتشابكة بين العرب واليهود في الحياة اليومية، وأنهم يعيشون معاً في المكان نفسه على الرغم من مشاعر الكراهية. ف"التفاعل بين الفلسطينيين والإسرائيليين يتسم بالكراهية والعداء بمنتهى الوضوح، لكنهم يتواجدون فيزيائياً معاً في المكان نفسه" (ص: 20).

ويشير كذلك إلى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار ظاهرة بروز مفكرين من الفكر الصهيوني التقليدي أمثال Judah Manes، أول رئيس للجامعة العبرية، يدعو إلى عدم تجاهل العرب: "دعونا نفكر بالعرب على أساس أخلاقي عميق، لنفكر بهم على أساس وجودهم، وليس على أساس غيابهم" (ص: 22)، ما ساعد في إعادة إخضاع الرواية الإسرائيلية إلى الاختبار والتمحيص؛ القائم على إنكار وجود العرب.

أما فيما يتعلق بموضوع القدرة على الحوار مع الشبان من كلا الطرفين من خلال لقاءاته، فإنه يعتبره أحد أسس حل الدولة الواحدة، الذي ينادي فيه؛ "فإني أجد هذا المشهد أنه مبعث على الأمل أكثر من أي وضع سبق، وأن خبرته منذ العام 1967، حين يتعلق الأمر بإمكانية تبادل الآراء، وتوافر الإمكانيات لإحداث التغيير السياسي في المستقبل" (ص: 20).

"فهم الإسرائيليين فهماً جيداً" ضرورة لا بد منها، فالإسرائيليون يسرفون وقتاً وجهداً ومالاً بهدف فهم العربي؛ "لمعرفة هذا الجار العدو"، وعلينا القيام بذلك لنحقق هدفين في آن واحد: الخروج من سجن التصور الذي تحاول إسرائيل فرضه علينا، وبناء قصتنا التاريخية، وإجبار الإسرائيليين على إعادة النظر في روايتهم القائمة على الاستبعاد؛ وهذا الدور ليس مقتصراً على المثقفين، بل الآخرين، وهناك مثال بسيط وواضح على ذلك: هو اللافتات التي كتبت بالعبرية والإنجليزية، فهذا مخطط له بإحكام من القادة، وبذلك نجبرهم على قراءة الرواية ثقافياً وأخلاقياً وعقلانياً، وعدم التجاهل لهذا الجار، لا أن نساهم في جعله غير مرئي، وفاقداً لدوره الإنساني.

أخيراً، إن هذا الاستعمار يختلف عن أي استعمار آخر، لأن كل استعمار يعود لموطنه، وما حدث مع الإسرائيليين مختلف "على العربي أن يفهم أيضاً أن تلك المسألة ليست ظاهرة ثانوية أو مصاحبة أو عرضية مثل تجربة الصليبيين أو الإمبرياليين الذين يمكن إعادتهم إلى مكان ما" (ص: 34).

المحور الثاني: انتفاضة العام 2000، النهوض الفلسطيني

يتحدث سعيد في هذا الجزء، عن أسباب الانتفاضة، والنهوض الفلسطيني قائلاً: "إن الجرح النازف للنكبة، وتجاهل اتفاقية "كامب ديفيد" لقضية اللاجئين الفلسطينيين، وحق العودة والتضليل الخطابي الماكر، والتوسيع المستمر للمستوطنات، بما يشتمل على فتح الطرق لهذه الأغراض، على حساب إتلاف مساحات من الأراضي الزراعية

من مساق "التعبير والرسوم".

العائدة للفلسطينيين، وإعادة تصميم جغرافية الضفة الغربية من جانب واحد، كلها أمور كفيلة باشتعال المقاومة الشعبية. بالإضافة إلى أن الاحتلال يقوم بشكل حرفي على خطى الاستعمار التقليدي، عبر إعادة تغليف الاحتلال في اتفاقيات السلام، وجعل الفرد الفلسطيني داخل السلطة الفلسطينية يمارس دور الشرطي ضد أفراد شعبه. فما يقوم به الفلسطينيون من رفض وبأشكال مختلفة لهذه الجروح؛ ليس مختلفاً عما قامت به الشعوب الأخرى عبر التاريخ، وليس هذا فحسب، بل يتم إظهار الصراع للعالم، كصراع بين جيشين متساويين في القوة والإمكانيات، على الرغم من الحقيقة المغايرة الموجودة على الأرض؛ وهو ثمن يدفعه الفلسطيني بشكل كبير، عبر ارتفاع التضحيات اليومية، في مقابل ظهور الإسرائيلي كضحية، تعود مراراً وتكراراً لتنعش الذاكرة العالمية عن المحرقة، ما يخلق تلك النظرة العالمية للفلسطيني كأكبر معادٍ للسامية. وإن ما حصل عليه الفلسطيني من هذه الاتفاقيات لا يتجاوز الخدمات الشكلية اليومية كالماء، والكهرباء، التي لا يمكن تسميتها أو وسمها بالفلسطينية. وبالتالي فالسبب المباشر لهذه الانتفاضة: ما قام به أرئيل شارون من زيارة للمسجد الأقصى، التي لم تكن مجرد زيارة بريئة، وإنما مسرحية لإظهاره كبطل أسطوري لمغامراته الحربية التي قام بها في الخمسينيات، وما تضمنته تلك المغامرات من مذابح وتهجير، وأهمها مذبحة صبرا وشاتيلا، وبالتالي فهذه الزيارة لم تأتِ كخطوة استفزازية للمسلمين فحسب، وإنما جاءت بهدف التفوق على المسلمين، إن هدف تلك الفعلة لم يكن الاستفزاز، وإنما هدفت إلى تأكيد التفوق الإسرائيلي، ومن ثم اليهودي على الإسلام" (ص: 50).

ولكن اقتراف إسرائيل للخطيئة الكبرى العام 48، وعدم سعيها إلى التهرب من تبعات هذه الخطيئة؛ من تشريد واضطهاد، كان لا بد لها من الأخذ بخيار السلام؛ لاعتبارات عدة، تكون هي الرابحة من هذه الاتفاقيات؛ كدعوتها للتخلص من غزة، فيكون تخلصاً رابحاً بالإضافة إلى أنها محاطة بالعالم العربي والإسلامي، ولكنه وفي المقابل يؤكد على أن السلام لا بد وان يكون بين طرفين ندين، ليس بين قوي وضعيف. "هذه عملية سلام لا نخسر فيها شيئاً" (ص: 53).

بالإضافة إلى سياسة الفصل التي تمارسها إسرائيل بين فلسطيني الضفة الغربية، وقطاع غزة، وفلسطيني أراضي الـ48، التي عاكست الأهداف الإسرائيلية المرتجاة منها، فولدت شعوراً أقوى بالانتماء وليس بالتجزئة لدى الفلسطينيين. فقد تولد لديهم شعور بالتماثل والتطابق، وبأنهم جزء من الكينونة نفسها (ص: 56).

فما تقوم به إسرائيل؛ يظهرها على أنها سلطة دينية، ودولة بلا دستور، ولكن الحضور الفيزيائي الفلسطيني هو محل نزاع دائم مع الإسرائيليين، وقد تعامل العالم مع الفلسطيني على أساس الرواية الإسرائيلية المتجذرة، التي تظهر الإسرائيلي كضحية للفلسطيني، ما يفرض ضرورة العمل على تغيير هذه الصورة النمطية، ويقع ذلك على كاهل الأكاديميين والمثقفين، لفضح هذه الممارسات، والعمل على تغيير الخطاب العربي الجماهيري بهدف خلق تعبئة جماهيرية، ومؤيدين للقضية الفلسطينية، وذلك لممارسة الضغط على السياسات الأمريكية الرسمية، بهدف تقديم الفلسطينيين كبشر ذوي تاريخ وقضية.

المحور الثالث: ما يريدونه هو ضمني

يتضح هنا دور المثقفين والأكاديميين أمثال "إدوارد"، وهو إخراج قضية فلسطين من الواقع إلى حيز أكبر من العالم، وهذا يتطلب فهماً دقيقاً وموضوعياً وعقلانياً وإنسانياً لما يحدث. هذا بالإضافة إلى فهم الخطاب وكيفية حل معضلة الصحافة المتحيزة، التي تصف الإسرائيلي كضحية، والعمل الدءوب لإظهار الواقع الذي لا يرى النور بسبب غياب التوثيق، فالعملية الآن ليست مقتصرة على الفلسطينيين في الضفة وغزة، بل على كاهل جميع الفلسطينيين في الشتات والداخل، من خلال توثيق الحقائق، والعمل على تسويقها، وتفعيلها، ونفض الغبار عن هذا التجاهل، لتقابل الحملة الضخمة الشرسة التي يقودها الإعلام الإسرائيلي.

ولتنفيذ ذلك، لا بد من الاهتمام "بالمجموعة الصديقة"، والاستفادة من العرب المتواجدين في المجتمع الأمريكي، ولكنه في المقابل يشير إلى العقبات الكثيرة التي سنواجهها، ومن أهمها جذور التجاهل لهذه القضية المعقدة، والجهل بالدور التي يمكن أن تلعبه الولايات المتحدة الأمريكية لصالح هذه القضية، عبر إتقان إعادة تصنيع رؤية جديدة للتعامل معها، وذلك من خلال شعبها الذي يدفع الضرائب.

هذا بالإضافة إلى ضرورة الاهتمام بالحركات النسوية العالمية، والمحاضرات التي تُقدم خلالها، فتتحدث بها عن الحركات الإنسانية، ومن ثم التطرق للقضية الفلسطينية على أنها قضية إنسانية. فكتاباته ونشاطاته تعمل على إعادة اللحمة وإيجاد الصلات، الكفيلة بطرح قضية فلسطين من منظور آخر ومعارض، وكأن العرض لها يأتي من زاويتي نظر متعارضين، مدعومتين بالوثائق والحقائق، ما يجعل هذا العمل قادراً على إعادة التحليل والتأمل والتدقيق والتمحيص لهذه الحملة الإعلامية الشرسة، التي قادت إلى سنوات عديدة من التجاهل لهذه القضية. لذلك يعملون على إسكاته وإسكات كل الأصوات التي تحمل وجهة نظر تخرج الفلسطيني من ثقافة البداوة والترحال، وعلى رأسها حق العودة، إلى ثقافة حضرية قائمة على الإنتاج والانتماء للأرض والهوية.

وهذا مشروع كبير يحتاج إلى جهد عظيم، وإصرار، وذلك بسبب قيامهم بإبادة المعرفة وتخصيصها، واحتكارهم لدور الضحية، فهم يرفضون أن يكون لهم شركاء في موضوعة الإبادة، مع أنها ظاهرة تنطبق على شعوب كثيرة على مر العصور، فثمة محارق في كل الأوقات، ولكن العمل على تمييز الهولوكوست هو بناء خطاب سياسي يمثل عنصر قوة لتدمير الفلسطيني باسم حق الضحية في الوجود.

وما تقوم به الولايات المتحدة من خطوات، كوصف العالم العربي بالإرهاب، وكيلها بمكيالين؛ ما هو إلا تصدير لأزمات داخلية "خذ على سبيل المثال قصف السودان العام 1998، لقد تم ذلك لأن بل كلينتون كان يعاني من المشاكل مع مونيكا لوينسكي" (ص: 86).

بالإضافة إلى أن الإرهاب لديهم مبرر، وله تعريف "إن الإرهاب هو

أي شيء يقف في وجه ما نرغب (نحن) بفعله" (ص: 87)، وهذه العدوى انتقلت إلى إسرائيل؛ فأصبحت المقاومة الشعبية الفلسطينية توسم بالإرهاب. وهي أيضاً تضخم الإرهاب، عبر ترويجها لمحاربتها الإسلام والمسلمين، من خلال تشويه هذه السمعة واستغلالها لصالح انتخاباتها الداخلية.

كما يدعو سعيد إلى الاستفادة من طرح قضايانا، في أكبر الشبكات تطوراً في دراسة الأدب والفلسفة، وقراءتها بشكل نقدي، تدعو إلى المساءلة والمحاورة، لأن المثقف هو القادر على المعارضة بشكل إيجابي، بالإضافة إلى تشكيل الوعي الفردي الفلسطيني، بعد ما تعرض له من تسوية وقصف، حتى لا يحدث دماراً وتشويهاً جينياً لديه، فالسياسة لعبه سياسية معلبة وجاهزة للبيع.

أصول الإرهاب

يرى سعيد أن ما حدث في 11 أيلول كانت أمريكا مغذية له على غير معرفة ودراية، وأن السحر لا بدّ أن ينقلب على الساحر، فهي عمدت إلى دعم المنفذين لهذا الهجوم بهدف الانتصار على السوفييت، حيث وصفتهم حينها بـ"مقاتلي الحرية"، فها هم استطاعوا أن يضربوها في عقر دارها، عبر ضرب أهم المراكز التجارية بالنسبة إليها. وكذلك فيما يتعلق بسلطتها القائمة على الهيمنة والقمع المستمر والعنيد، من دون الانتباه لمصالح العرب وتطلعاتهم، ما خلق لدى أمريكا سجلاً كبيراً من الانتهاكات لسياستها الخاصة؛ القائمة على الديمقراطية، وحرية النصر.

كما يشير إلى إصرارها على ممارسة دور الوصي على العالم وقيمه، وممارستها أفظع الجرائم، فهم يتحدثون شيئاً ويمارسون شيئاً آخر، وهم بذلك يحلقون بأحلامهم، لكن عليهم النزول إلى الواقع.

السبب الآخر للإرهاب هو الفقر والجهل، باعتبارهما عوامل ذاتية تساعد على الإرهاب، فهي بالنسبة للفقير أحياناً قاذفة "بي 52"، وبالتالي إحالة هؤلاء الفقراء أسامة بن لادن إلى شخصية عريقة، وقتله هدف أول- لكن يمكن أن يأتوا بعشرين أسامة بن لادن.

إن تبرير أمريكا لما تقوم به، يشكل دعامة أساسية في دعم الإرهاب، وهذا بدوره سيقودها إلى حرب عشوائية ستحصد الأبرياء، وهذه عملية انتحارية ستقود أمريكا إلى الهاوية.

أخيراً، وفي كل مرة هناك يوجد لأمريكا شيطان؛ فقد كان الخميني، وعرفات، وصدام، والآن أسامة بن لادن وهذه صور متكررة ناجحة لتعبر عن غياب التحليل والتأمل.

فالإرهابي هو كل شخص يعادي الأمريكان، وبالتالي هو شخص تنزع عنه صفة الوطني أو المناضل "فمثلاً من كانوا في العام 1980 يصفون بمقاتلي الحرية لأنهم يحاربون السوفييت، الآن يوصفون بالإرهاب مع أنهم يمارسون الفعل نفسه وفي المكان نفسه.

ويؤكد سعيد على الرغم من رفضه للمقارنة بين ما يقوم به شاب من غزة وقد لف جسده بالمتفجرات، وبين ما حصل في 11 أيلول؛ على أن أحداث أيلول لم تحمل رسالة، ولا تريد تغييراً أو حواراً، فهي "إرهاب أخرس"، وكأنهم يقومون بالتطهير نيابة عن الله، في المقابل إن ما يقوم به "الفلسطيني" هو تعبير ذاتي عن الشعور بالازدراء والإهمال، وهو رد فعل على ما تقوم به إسرائيل من ضرب لشعب أعزل.

كما يؤكد سعيد على أن ما ساهم في تشكيل أصول الإرهاب، هو غياب الفهم الأمريكي لهذا الصراع، وتحليله ومعرفة جذوره، ودراسة الحاضر، والفهم الأمريكي القائم على ثنائية (نحن، هم)، "فالعنف هو الابن الشرعي لثقافة العنف"، فمن أجل تقويض الإرهاب لا بدّ من فهم ماضيه وحاضره وجذوره، لذا يرى ذلك أفضل في أوروبا كونها خارج مسرح الأحداث، فهي ترى الأمور بشكل أعمق.

في النهاية، فان فهم الإسلام والمسلمين فهماً جيداً، والانتباه لنوعية المعرفة، وذلك للتعامل مع الإسلام والمسلمين ليس من منطلق كونهم مصدراً للتهديدً، لأن ما يوجد عن المسلمين عبر رحلة الاستشراق وحتى اليوم، هو تشويه كامل لصورتهم، لذلك يجب الابتعاد عن الصورة النمطية للإسلام، التي لا تظهر في السياسة فحسب، بل في الأفلام أيضاً.

منظور فلسطيني حيال الصراع

كما تم سابقاً من توضيح الإرهاب وأصوله الأمريكية، وقيامها بتصدير هذه السلعة، بعد تجهيزها للبيع، جعل إسرائيل المستورد الأوحد لهذه البضاعة وبكل حرفيتها، فما تطلق عليه إسرائيل إعلامياً بشن هجمات على "أوكار المخربين" هو في الحقيقة تدمير البنية التحتية الفلسطينية، كما أنه اعتداء على كل ما هو فلسطيني، ولكن الصحافة المتحيزة التي تركز على الانتحاريين، وتظهر صور الضحايا الإسرائيليين وأشلائهم، تتجاهل ما يحدث في غزة والضفة؛ فتظهر إسرائيل كضحية، في حين أن ما يحدث في الضفة وغزة ليس إلا موت بطيء، وعقاب جماعي، وقتل للمدنيين، وليس مواجهة مع مسلحين كما يتم التعبير عنه إعلامياً، وتأتي نتيجة كل هذا معاكسة ومخالفة تماماً لما يتمناه الإسرائيليون، فتحدث تكيفاً فلسطينياً مع ما يحدث يؤدي إلى تصاعد إرادة المقاومة.

كما أن هذه الأعمال الإسرائيلية تتعاضد وبقوة مع الخطاب الرسمي الإسرائيلي؛ الداعي لوقف المفاوضات لعدم وجود شريك سلام حقيقي كما تدعي، مع أنها هي المدمرة والساحبة لصلاحيات هذا الشريك، الذي وصل إلى ذلك عبر انتخابات العام 1996، وخضع للرقابة الدولية، لكنها تصر على وصف هذا الشريك بالوحشية، وتمارس سياسة الاغتيالات، التي دائماً ما يكون ضحاياها من الأبرياء، فما يدعونه الدفاع عن النفس -كما يدّعون- هو في حقيقته عملية تطهير عرقي، وتزوير للغة عبر الخطاب الماكر، والحقيقة على الأرض تظهر أن الدفاع عن النفس هراء، واعتماد العالم على الصحافة غير كافٍ، لأنها تعرض الأشياء منزوعة من السياق أو الخلفية.

وهذه السلعة كانت أكبر هبة لشارون ليبني عليها المقارنة بين ما تقوم به أمريكا في أفغانستان، وبين ما تفعله إسرائيل في الضفة وغزة؛ ليضع

الشعب الفلسطيني ورئيسه في مقابل أسامة بن لادن، على الرغم من الفارق الكبير في هذه المقارنة، فشتان بين احتلال عسكري منذ ما يقارب 35 عاماً، والاستمرار في عنجهية الرواية الإسرائيلية، فهم لا يزالون يرفضون وصفهم بمحتلين، قال "لانداو" وزير الداخلية "كيف تستطيع قول "الاحتلال" إننا نعود إلى وطننا، وحتى لو كان هناك أناس آخرون، فإن ذلك لا يهم، فاليهود يمتلكون الأرض بحق مقدس" (ص: 127).

وبالتالي، فإن الدور الأمريكي في المنطقة، وهو يتحرك دون مراعاة إلا لمسألتين أساسيتين هما: حفظ أمن إسرائيل، وضمان استمرارية تدفق النفط، فإنه في عدم رؤيته لشعوب المنطقة، إلا مجالاً لرغبته وأدوات لتحقيق مصالحه، فإنه لا يتنكر لحقوقهم فحسب، بل يحطم وجودهم.

ومقابل ذلك يواجهون موجة من العداء النابع من عدم فهم الشرق الأوسط، أو بسبب تشوه هذا الفهم، من خلال اللوبي الصهيوني، الذي يحرف كل شيء لصالح مصلحة دولة إسرائيل، ما جعل هذه رؤيا ثابتة لسياسة أمريكا، هذا على المستوى الرسمي؛ أما على المستوى الشعبي؛ فهناك جهل كبير بالوضع في الشرق الأوسط؛ القائم على وصف العرب بالإرهابيين، والإسلام بأنه دين عنيف، ولقد عملت الأحداث الأخيرة على ترسيخه، والإعلام الذي لا يخاطب العقل أو المنطق "فوصف العرب والمسلمين بأنهم جميعاً إرهابيون، وكأنهم أولاد يسيئون التصرف، وهم بحاجة إلى مدارس للإصلاح".

والأعظم من ذلك، أن الفلسطينيين ضحايا الضحايا، ولقد استفاد اليهود من قضية الضحايا، ومن عقدة الذنب التي يشعر بها المسيحيون، وحصلوا بذلك على دعم كاف، مثال ذلك الالتزام الأخلاقي الألماني اتجاه الإسرائيليين، بكونّ الهولوكوست ظاهرة ألمانية، في المقابل لا نجد ذلك مع الفلسطينيين، على الرغم من أنّ ألمانيا إحدى مهندسات المعاناة الفلسطينية.

فالضحايا يمارسون تطهيراً عرقياً جديداً قائماً عن النقاء اليهودي، وعلى الرغم من ذلك فهي استطاعت السيطرة عن الضمير الغربي، ولكن هناك إسرائيليين يرون أن هذه السياسة انتحارية؛ كون إسرائيل محاطة بالعرب، وأنها تخلق بذلك كراهية للأجيال القادمة.

وفيما يتعلق بالعوامل الخارجية، فإن متعهدي الأسلحة الذين من مصلحتهم استمرار التوتر؛ لاستمرار البيع وتوفير قطع الغيار، بالإضافة إلى المساندة المسيحية، وهنا تبدو مفارقة إلى حد السخرية، فهم يظهرون الدعم الإسرائيلي القائم على أنها دولة منحها الرب، بالإضافة إلى إيمانهم بعودة المسيح، ولتحقيق ذلك لا بدّ أن يكون اليهود جميعاً في فلسطين ليقتلوا، فخلف هذا الدعم هدف معادٍ للسامية.

على موعد مع النصر

لتحقيق النصر لا بد من المقاومة، والمقاومة الفلسطينية ضمنت تنوعاً في أشكالها، وكانت ذات تغيير ثقافي، فوجد مسرح وسينما وأدب مقاوم، لذلك فإن الثقافة هي أداة المقاومة، في محاولة طمس الحق الفلسطيني، وإقصائه ضمن الرواية الإسرائيلية، وبالتالي هي شكل من أشكال استنطاق الذاكرة، مقابل الطمس والنسيان، هذا بالإضافة إلى ما تشكله من قدرة على التحليل، والمساءلة للخطاب الثقافي.

فالثقافة سلاح يهدد السلطة وتخشاه كما تخشى أشكال المقاومة الأخرى، وهذا ما حدا بالإسرائيليين إلى تدمير الملفات، وتخريب المكاتب العام 82، وما قاموا بتدميره بعد عشرين عاماً في رام الله، كمركز السكاكيني الذي هو رمز لإنسان علم فلسطيني، وكيفية استيعاب إرثه الثقافي والسياسي، هذا بالإضافة إلى تدمير الملفات والأقراص الصلبة في وزارة الصحة، والتربية والتعليم، ودائرة الإحصاء العام 2002.

ومن الرموز الثقافية المقاومة "محمود درويش" الظاهرة الفلسطينية، شاعر جماهيري يكتب بنبض الشاعر، والشارع، ابتداء من قصيدته "سجل أنا عربي" التي توضح الممارسات الإسرائيلية، إلى "حاله حصار" التي تتحدث عن الحصار الذي عايشه العام 2002، وهو من أفضل الشعراء على المستوى العالمي، فشعره مزيج من الثقافة التي استطاعت أن تحول التراث (القرآن، والأناجيل، وإنتاجها على شكل دنيوي) بالإضافة إلى معرفة ثقافات مختلفة، فقصائده شديدة الارتباط بالنضال والتحرر، وهناك غير درويش، لكن كل شاعر يجيب عن المتطلبات بطريقته الخاصة، والشعر الفلسطيني يحتوي على اندماج بين السياسة والأدب، نتيجة الحالة التي يعيشها الفلسطينيون، من اضطهاد أو إقصاء، وينتصر للإنسان واللغة والهوية.

وهناك ازدراء موجه لثقافتنا وحضارتنا؛ نابع من إساءة تقديم اللغة التي توصف بجدليتها، وخطاب وسائل الإعلام الذي يقصي الناس، ويجردهم من صفاتهم الإنسانية، وهذا ما حدث عندما يكرر لفظ اسم صدام "سُدوم" فهو عجرفة وازدراء.

ففهم الأمريكان لأهمية الثقافة في المقاومة؛ جعلهم يدعون الشعراء الكبار أمثال "والت ويتمان" الذي كان الغطاء هو الاحتفاء بالشعراء، ولكن الغاية هي منح البيت الأبيض السيطرة والسلطة، على الثقافة واللغة والاحتفال بمجرد إعلان البعض رغبته في معارضة الحرب على العراق.

ويوضح أن فكرة الحرب لا تحظى بالجماهيرية، ما يعني أن الأمريكان يدخلون مرحلة جديدة، وأنه ليس نظاماً ديمقراطياً تم انتخابه بالمعنى الحقيقي، فهو نظام مصمم على خوض الحرب بأي ثمن، وفي هذه المرحلة لا بد من الاستفادة من الخطاب الشعري؛ بوصفه قادراً على التغيير وممارسة هذه الزمرة من الادعاءات الديمقراطية، ويحط من قدر الديمقراطية، ويسخرون لجهلها عبر التكامل، الذي لم يحدث أبداً عبر التاريخ، وهذا يوضح الهوة بين القصر والجمهور، وهذا ليس مقتصراً على أمريكيا. وهم بذلك على حافة ما يدعونه ويسمونه بالديمقراطية. فهناك احتجاج يقومون به في الشوارع، لكن لفظة (شارع) عند الحديث عن العرب توحي بأنهم متشردون، حتى أصبحت لفظة للباعة المتجولين والشحاذين (عرب الشوارع)، لكن عندما يتعلق الأمر بالغرب؛ فإنها تعني الاحتجاجات المنظمة، والمرخصة، ومظهراً من مظاهر الديمقراطية، واستخدامها باستمرار ليس بريئاً، فهو إما لاستعادة

صورة نمطية في الذهن "مجموعة من المشردين التافهين وأشباه البشر" على الرغم من أن الشارع العربي يحمل أطيافاً سياسية متنوعة وغنية؛ ومثال على ذلك قناة الجزيرة، فهي توجه النقد الذاتي أكبر مما يجري في الولايات المتحدة، وهنا أيضاً تظهر تقطع أوصال الديمقراطية، عندما تواجه جماعة ضاغطة ويتم تجاهلها، وهذا ما حصل مع "جورج بوش" عندما تجاهل خروج عشرة ملايين شخص إلى الشوارع، على اعتبار أن هناك نوعاً آخر من الثقافة التي لا يشك في كونها مستمدة من الدين، على اعتبار أن الرئيس يتصل بالله، "وهذا موجود في الديانة المسيحية المعمدانية واليهودية والإسلامية)، وهي تراث كاثوليكي، وبالتالي لا يمكن مناقشته، لأنه على حق مستمد من محادثة مع الله.

والحرب عن العراق جسد ضياعاً للإرث الحضاري العالمي لبقعه حملت التراث المسيحي والإسلامي والبابلي، وتم اختزاله بسُدوم، وهذا يدل "على جهل وصدع كبير بين العالمين العربي والغربي"، فللعراق في عقل كل عربي مكانة، بالإضافة إلى أن المكان الذي اكتشفت فيه الكتابة والخطاب الرسمي، يوضح أن علاقة العداء هي مع صدام فقط؛ ولكن الواقع يظهر معاناة كل عراقي في فترة العقوبات، والحرب؛ من الجوع وسوء التغذية، وعدم توفر اللوازم المدرسية.

والمقصود من الحرب هنا هو: قصف الوعي الفردي، وإصابة الوعي الجماعي بالشلل، بالإضافة إلى الخطاب الماكر في استخدام مفردات "زعم، ادعى"، فعندما تذكر معاناة العرب فإنها توحي بأن العرب يبالغون، وهناك حاجة إلى التوثيق عند الحديث عن معاناتهم، فيما يتم تحويل تقارير حقوق الإنسان إلى قضية، وهذا بدوره جزء من الأدوات الدعائية المشرطية التي تعلل وتنتقص من إنسانية الناس، بالإضافة إلى ممارسة الخطاب التقليدي الاستعماري للمقاومة بين الغرب والعرب، وكأنه صراع بين شعوب متطورة، وشعوب غير متطورة.

وهذا لا تسلم منه الجامعات التي تنتقد إسرائيل، فهي توصف بمعاداتها للسامية، مثل ما حصل مع الشاعر المعروف "توم بولين" عندما دعي للتحدث في جامعة هارفارد، الشخص الذي كتب قصيدة لمحمد الدرة، وهنا يظهر زيف الأداء بإيمانهم بحرية التعبير والحرية الأكاديمية، "لكن هنا يظهر خوفهم لإخراجه إسرائيل من الحصانة من النقد، جعلهم يمارسون التخويف لإظهار التطابق بين انتقاد إسرائيل ومعاداة السامية". وهناك تضيق على الأكاديميين، فهناك موقع إلكتروني يبلغ عن الأكاديميين الذين يمارسون انتقاداً على إسرائيل، وهذا الموقع يهاجم الجامعات، حيث وصف جامعة كولومبيا (جامعة بيرزيت في هيوستن) لأن فيها فلسطينيْن، ما يعني أن هناك إرهابياً متخفياً.

وعودة مرة أخرى للحديث عن الذاكرة باعتبارها أداة للمقاومة، فالذاكرة هي صراع مع النسيان، والذاكرة بالنسبة للفلسطينيين ليست مقتصرة على الذاكرة المنظمة، أو الروايات الرسمية، وإنما الرواية غير الرسمية، مفتاح أو صكوك، وحتى اللهجة الفلسطينية العامية يتم حفظها ونقلها للأجيال، وقد عمل الإسرائيلي على طمس الذاكرة، لكنه يرفض طمس ذاكرته أو نسيانها؛ لأن أصل وجوده مرتبط بالمحرقة، فالتذكر الدائم لها منح الإسرائيليين تعاطفاً دائماً معهم، وأن المعاناة التي لا يمكن نسيانها، أو الطلب من الآخر تحديد بدايتها ونهايتها، فهي مستمرة، وهي ليست تقويمياً سنوياً، فالمحرقة تجربة رهيبة لا يمكن تجاهلها، وكذلك يجب عدم استخدامها كغطاء لاضطهاد شعب آخر، وتشويه حياة الناس، ولا يمكن تأطير العقاب الرهيب، والمعاناة، كما أنها لا تقاس بالكم، فهناك عمليات تطهير عرقي مثل ما حدث مع الأرمن، لكن الإسرائيلي يتجاهلها ويركز على خصوصية الشعب اليهودي، فدورنا الثقافي "هو تعرية الظلم وتسليط الضوء على ما يجري طمسه "رغبة في الحرية، والانعتاق، واستخدام مصادر جديدة في الأمل، ويعطي نموذجاً على ذلك أورويل في روايته **سياحة بين الكلاب**.

وهنا نختم كما بدأنا بأن إدوارد سعيد ما زال الحكواتي لهذه القصة المعقدة، كثيرة الانعطاف لشعب منفي بلا دولة، وهو راوٍ مشوق يروي دائماً باختلاف، لاستمرار التشويق وإدامة الانتباه، وخوفاً من نسيانها في الضمير العالمي.

فهناك لا محالة موعد مع النصر، باستغلال كل وسائل المقاومة، وعدم تهميش دور الثقافة كأداة قادرة على التغيير، بعد إحداث الوعي بالتغيير، وليكن إنعاش الذاكرة الفلسطينية، أو استنطاقها هو الطريق لإعادة كتابة التاريخ وجغرافيته وتجاربه وآلامه وإرادته ورغباته؛ لإظهار خصوصية هذه القضية، وخصوصية الشعب المقهور والمطموسة آماله، لا بد من تغيير مجرى التاريخ، وهذا ليس أمنية تتحقق بالابتهالات، بل هي فعل يصنعه الإنسان بالمعرفة والعمل.

أمل قطاوي
مدرسة راهبات الوردية
مشروع التكون المهني المستمر في المدارس

من ورشة "تحريك الرسوم" التي نفذها الزميل كفاح الفني مع أطفال من مخيم الجلزون.